الكلمة

الذي أظهر الآب

دكتور

جورج حبيب بباوي

٢٠٢٤

مقال منشور في مجلة مدارس الأحد، عدد إبريل ومايو ١٩٧٤

www.coptology.org

أُنشودة اللوغوس:

من الأخطاء الشائعة بيننا، الحديثُ عن الكلمة بصيغة المؤنث، حتى أن البعض يقرأون إنجيل يوحنا ويقولون: "في البدء كانت الكلمة". ولعل العذر لمثل هؤلاء هو أن الكلمة مؤنث في اللغة العربية وسائر اللغات السامية الأخرى. ومما لا شك فيه أن كلمة Logos في اليونانية صعبة الترجمة، لأنها شخصٌ وليس نطقًا يصدرُ من فم الإنسان. والفرقُ بين كلمة الله في الكتاب المقدس، والكلمة الابن ظاهرٌ وواضحٌ، لأن كلمة الله هي حديثٌ للأنبياء وإعلانات إلهية، بينما الكلمة الابن هو الله ذاته الذي أعلن عن نفسه بصورةٍ لا يمكن لأي كلمات أن تعبِّر عن عمق هذا الإعلان.

الملامح الأساسية للإصحاح الأول من إنجيل يوحنا ١: ١–١٨:

مَن يقرأ هذا الإصحاح الفريد باللغة اليونانية يشعر بأن الإصحاح قطعةٌ رائعةٌ من الشعر توحي بأنها منظومة للتسبيح، وليس لمجرد القراءة. وحسب وضع الإصحاح نفسه، فإن النصوص ١ — ١٨ يمكن أن تقسَّم إلى أربعة مقاطع أساسية:

أولًا: ١–٥ الكلمة الله.

ثانيًا: ٦–٨ الشهادة للكلمة.

ثالثًا: ٩–١٣ علاقة الكلمة بالعالم.

رابعًا: ١٤–١٨ اعتراف الجماعة الذين سكن بينهم الكلمة.

لماذا افتتح يوحنا إنجيله بهذه الترتيلة؟

إن الإصحاح الأول ١–١٨ هو ملخَّص الإنجيل الرابع كله، ذلك أنه بعد ذلك يأتي خبر شهادة يوحنا المعمدان، وهو المقدمة التاريخية التي سبقتها شهادة الكنيسة: "رأينا مجده"، والتي عليها تستند الكنيسة في تسبيحها، فهي تختتم أنشودتها بقراءة شهادة يوحنا، ثم باقي أعمال الرب ومعجزاته إلى موته وقيامته. وفي الواقع، فإن إنجيل يوحنا كآخِر ما كُتِبَ من الأناجيل، بل من أسفار العهد الجديد كله، يحمل طابعًا فريدًا إذ أنه ركَّز الأنظار على أُلوهية الرب أكثر من غيره من كُتب العهد الجديد، ولذلك كانت الافتتاحية بلا شك تحمل طابع الإنجيل الفريد، وهو أُنشودة اللوغوس – الله الذي ظهر في الجسد.

المقطع الأول: الكلمة الله من ١–٥

يظهر اللوغوس في ثلاثة مظاهر أساسية، هي:

(أ) **في البدء كان الكلمة**: ولا يمكن لأي قارئ إلَّا أن يلاحظ الاستخدام الواضح لكلمات سفر التكوين، في البدء خلق الله السموات والأرض (تكوين ١: ١). لكن كلمة "بدء" مختلفة تمامًا عن بدء سفر التكوين، ذلك أنها لا تذكر شيئًا عن الخلق، بل بدء كل شيء، أي الله نفسه، ولذلك البدءُ هنا ليس شيئًا مرتبطًا بالزمن، بل هو أصل ورأس كلِّ شيء. البدءُ هو الله والبدءُ هو اللوغوس، لذلك فالترتيلة تضعنا أمام الله نفسه مباشرة.

(ب) **كلُّ شيءٍ به كان**: يبدو اللوغوس كما لو كان وسيطًا في الخلق. لكن علينا أن لا ننسى أن اللوغوس ليس مجرد وسيط لأن ١: ١٠ يقول: "كان في العالم، ولأجله

خُلق العالم"، لكن العالم لم يعرفه، ولأن اللوغوس خلق العالم، فان هذه العقيدة هي القاعدة المتينة التي عليها ارتكز موضوع الخلاص كله: "كل شيء به خلق" فاللوغوس لا يطلب شركةً مع أخصَّائه فقط، بل مع كل الإنسانية التي خُلِقت به ولأجله حتى الذين لا يعرفونه: "العالم لم يعرفه"، حتى أخصائه "خاصته لم تقبله" في هذه الكلمات يضع يوحنا الرسول تدبير الخلاص كله.

(ج) اللوغوس هو الحياة والحياة هي نور الناس: لقد حاول بعض المفسرين أن يقرأوا نص يوحنا على أساس أن الجزء الذي يقول: "كل شيء به خلق – فيه كانت الحياة" متصل، لكن من الواضح أن الخليقة ليست هي الحياة، بل اللوغوس هو الحياة. وحديث يوحنا عن النور هو حديثٌ مزدوج. النور هو نعمة مشاركة اللوغوس في الحكمة والتعقل، لكن هناك معنى آخر للنور مستتر في الكلمات يجب أن ندركه بمساعدة كلمات الإنجيل نفسه. إن النور هو الحياة الجديدة المشرقة "النور يضيء في الظلمة"، هو الخلاص الآتي والخلق الجديد الذي سيشرق في ظلمة الخطية وظلمة الإنسانية، لكن هذا النور لا يمكن إدراكه منِ قِبَل الأشرار، أي لا يمكن فهمه ومعرفته، وهذا ما تعنيه الكلمات: "الظلمة لم تدركه (تعرفه)". المسيح هو نور العالم، يجعل العميان يبصرون" (يوحنا ٩: ٣٩)، والذين يبصرون يصابون بالعمى، والمعنى هنا واضحٌ، فالذين يفتشون عن الخلاص يجدونه، أمَّا الذين يظنون أنهم قد وجدوه خارج المسيح، فهم على خطأ، ويظلون في الظلام، هم المبصرون الذين فقدوا البصر وصاروا عميان.

المقطع الثاني: الشهادة للكلمة من ٦–٨

تتوقف كلمات الأنشودة عند شهادة يوحنا الذي جاء ليشهد للنور، وهذا المقطع على قدرٍ كبيرس من الأهمية، ذلك أنه يؤكِّد ليس مجيء النور وإشراقه فقط، بل وجود شهود اختارهم الله، وعلى رأسهم يوحنا الذي هو نفسه لم يكن "النور". ويعود يوحنا الرسول إلى تكرار هذه العبارة في ١: ١٨ ويمكننا أن نرى المعنى المزدوج في هذه العبارة. هي شهادةٌ بأن المسيح وحده، وليس آخر هو النور، وأن يوحنا جاء ليشهد فقط. لكن هناك تحذيرٌ آخر لمن تبعوا يوحنا المعمدان (راجع أعمال ١٩) حيث وجد الرسول بولس في أفسس –المكان الذي كُتِبَ فيه إنجيل يوحنا حسب شهادة التقليد– تلاميذ ليوحنا المعمدان. فكأن افتتاحية الإنجيل فيما وهي تتحدث عن الخلاص الآتي تحذِّر كل المؤمنين بصورةٍ عامة من تصوُّر وجود نورٍ آخر غير نور المسيح، وفي ذات الوقت تعالج اعترافًا شاع في وقت كتابة الإنجيل نفسه.

وفي الواقع أن الافتتاحية تحمل أيضًا اختبارًا قديمًا لكاتب الإنجيل نفسه الذي ظنَّ أن يوحنا المعمدان هو النور. لكنه ما أن تقابل مع المسيح حتى أدرك أن يوحنا مجرد شاهد للنور، وحسب أفضل آراء المفسرين فإن يوحنا (١: ٣٥ — ٤٠) تتحدث عن يوحنا الرسول واندراوس. كلاهما كانا من تلاميذ يوحنا.

المقطع الثالث: علاقة الكلمة بالعالم من ٩ – ١٣:

كان النور الذي يضيء لكل إنسان آتيًا إلى العالم. وهنا أيضًا معنىً مزدوجٌ للنص، فإن النور أو اللوغوس له علاقة طبيعية بالإنسانية، إذ أنه يضيء كل إنسان يقبله، ذلك أن شهادة يوحنا المعمدان هي الشهادة للنور لكي يؤمن الكل بواسطته،

وبالتالي فإن الشهادة هي لشيءٍ جديدٍ مستتر، وهي لعمل النور في العالم على نحوٍ جديد، هو الخلاص الآتي. لم يكن العالم يعرفه رغم أن العالم يستمد كيانه وحكمته منه، وهذا هو أعمق ما في رسالة الإنجيل كله، وهو عدم تحول المحبة الإلهية إذ يظل الله يمد يده حتى نحو الذين لا يطلبونه، ولذلك عندما جاء النور لخاصته، فإن خاصته لم تفتح له الباب، وهذا هو المعنى الدقيق للكلمة: "يَقبَل" إذا شئنا نردها إلى المعنى الكتابي للكلمة ظل اللوغوس خارجًا مثل غريب (١ : ١١)، لكن الذين قبلوه هؤلاء قد مُنِحوا شيئًا لا يمكن الحصول عليه بأي وسيلة طبيعية، وهي البنوة التي لا تأتي من تطور الحياة نفسها، ولا تأتي عندما ينضج الانسان أو يزداد خبرة، بل من الله وحده الذي يلد بنينًا (١ : ١٢). ولذلك يضع الرسول يوحنا الحياة الطبيعية التي من الجسد والدم في مقابل الحياة الإلهية التي تعتمد على الله وحده، لأن منه تُستَمد هذه الحياة، ووحدها هي التي تمكِّن الإنسان من أن يظل في النور، وأن يقبَل الله. وفي هذا النص ينحصر صراع الإنسانية الطويل المرير بين اللاهوت الطبيعي الذي يحاول الاقتراب من الله بوسائل الحكمة الإنسانية، وبكل ما أنتجه اللحم والدم واللاهوت المسيحي الذي لا يرى أية إمكانية للاقتراب من الله إلَّا بالإيمان بمجيء ابن الله نفسه لكي يجعل شركتنا مع الآب ممكنةً، ولعل هذا هو الذي جعل جميع الكنائس الشرقية ترتل الاصحاح الأول من إنجيل يوحنا في صلاة السَّحَر، أي صلاة باكر لكي يبقى الإنسان مؤمنًا باقتراب الله من الإنسان بوسائله الخاصة وبقوته الإلهية لا باقتراب الإنسان من الله بوسائله الطبيعية القاصرة. وعلينا أن نلاحظ: "العالم لم يعرفه"، وكلمة يعرف هنا تعني يطيع ويقبل. لم يكن اللوغوس مستترًا، بل رفض العالم معرفته، أي رفض أن يقبله – اذهبوا عني إني لم أعرفكم قط.

المقطع الرابع: اعتراف الجماعة الذين سكن بينهم الكلمة من ١٤ – ١٨

تصل الأنشودة إلى خاتمتها باعتراف الجماعة: "الكلمة صار جسدًا"، "سكن بيننا" والذي عاش في أيام الرسول يوحنا يمكنه فقط أن يدرك كم كانت هذه الآيات مجرد عثرة. وهي تزال إلى اليوم بالنسبة لعددٍ ليس بقليلٍ من الناس. والعثرة الأولى هي "الكلمة صار جسدًا"، والعثرة الثانية "سكن بيننا أو حل فينا". والعثرة الأولى صعبة على الذين يتصورون أن الجسد مضاد لكل ما هو إلهي وطاهر. ولكن الرسول يضع خاتمة عمل اللوغوس بهذه الكلمات، وكأنه يقول نحن نعرف مَن هو اللوغوس، وماذا فعل بالنسبة للعالم، لكن كل هذا كان مقدمةً لما سيحدث لأجلنا، وما سوف يصنعه اللوغوس بنفسه. لقد احتار المترجمون في اختيار الكلمات المناسبة: هل هي سكن بيننا، أو حل فينا. وفي الواقع أن نص يوحنا (١: ١٨) يعني حلول الله والحلول والسكن بمعنى واحد (راجع رؤيا ٧: ١٠ – ٢١: ٣) وقارن (مرقس ٩: ٥ – لوقا ١٦: ٩) سكن أو حلَّ تعني حضور الله نفسه واتخاذه جسدًا. هذا الجسد هو الذي جعل سكناه بيننا أو فينا. ذلك أن حلول الله في الجسد هو اتخاذه خيمة له من خيام بني البشر (أجسادهم)، فصار كواحدٍ منّا، وهنا عثرة الإنجيل بكل معناها. كيف يمكن أن يُقال عن الله هذه الأقوال الغريبة: جسد وجوع وعطش ثم موت .. الخ. لكن بالنسبة للجماعة، العثرة ليست عثرة "لأننا رأينا مجده"، والمجد هو مجد المحبة التي أظهرها الابن عندما عُلِّقَ على الصليب "عندما سُمِّر جسده شعَّ نورُ المحبة الإلهية". والمجد الإلهي هنا يحدده الرسول بأنه "مملوء نعمة وحقًا"، وعلينا أن نتذكر كلمات العهد القديم عن العهد الأول "الرب الرب إلهٌ رحيم ومحسن بطيء الغضب كثير النعمة والحق" (خروج ٣٤: ٦) هذه هي الكلمات التي سمعها موسى عندما ظهر الله له.

وظهور الله يعني الانسحاق وعدم الاستحقاق، فليس من حق الانسان أن يرى الله. ليس للإنسان مطلبٌ عادلٌ من حقِّه، وعليه أن يناله مهما كانت الأحوال، لكن تعطُّف الله هو النعمة، وهذه النعمة هي الحق، أي دوام النعمة، ومحاولات الله الدائمة المتكررة التي تمكِّن الانسان من تقبُّل العطف والإحسان الإلهي. الحق هو عدم تغيُّر الله في مقابل تغيُّر الانسان. وهذا هو المجد الذي رآه الذين آمنوا باللوغوس لأنهم شاهدوه بعيونهم المحبة والرحمة المستندان على الحق.

فليس هناك بعد هذا الإعلان أيُّ إعلانٍ آخر. الله ظهر في الجسد، لكن الأنشودة تمضي إلى ما هو أبعد وأعمق: "رأينا مجده مملوءً نعمة وحقًّا". لكن "من ملئه جميعًا أخذنا نعمة فوق نعمة". في اليونانية كما في الآرامية يُعدُّ تعبير "نعمَة فوق نعمةٍ" هو أفضل صيغة للتعبير عن عدم انتهاء النعمة، بل تزايدها المستمر، مثل بئرٍ كلما أخذنا منه ماء ظلَّ كما هو دون نقصان. ولقد استخدم الآباء تعبير نعمة فوق نعمة للإشارة إلى جسد الرب ودمه والروح القدس. وكان التعبير "نعمة فوق نعمة" هو أحب كلمات الاصحاح الأول للفيلسوف المسيحي (كيركجورد) الذي قال عن "نعمة فوق نعمة" المحبة التي بلا تردُّد التي كلما أعطت تعاظَمَ العطاء وكلما قدَّمت جاء بثمار كثيرة لأنها تقدِّم ذاتها. نعمةً فوق نعمةٍ هي مفتاح تاريخ الكنيسة الجامعة التي أعطت للعالم "نعمةً فوق نعمةٍ".

والأُنشودة لا تقف عند هذه الكلمات، إنها تعود إلى المقابلة بين الناموس أو موسى والنعمة والحق أو يسوع المسيح (١: ١٧). لقد أعلن الله عن إرادته في الناموس أو لموسى، أمَّا في المسيح، فقد أعلن عن ذاته هو بطريقةٍ لا تقبل التغيير .. إعلانٌ لا تحجبه حتى خطايا البشر .. إعلانٌ سيظل يشرق حتى في الظلمة، وتمضي الكلمات

لتؤكد أن إعلان الكلمة يفوق كل إعلانات العهد القديم، بل يفوق كل ما تصوَّره العقل عن الله، ذلك أن الله "لم يره أحدٌ قط"، لا يمكن لغير المنظور أن يعلِن عنه إلَّا غير المنظور ولا يمكن لغير المنظور ان يعلِن عن نفسه إلَّا بطريقة منظورة. الله لم يره أحدٌ قط. ولاحظ أن كلمة "أحد" على الفور يتبعها كلمة "الابن الوحيد" الذي لا يقترب من الله مثل المخلوقات، إنه في حضن الآب كل حين، هو الذي أخبرنا عن الآب. "لا يعلِن الآب إلَّاَ من يدرك سِرَّه" ولا يكشف لنا عن محبته إلَّا الذي في حضنه .. الذي رآني فقد رأى الآب (يوحنا ١٤: ٩) أليست هذه أجمل تراتيل الكنيسة؟

+ + +